

سرد الصورة في القصة الجزائرية "مغارة الصابوق" ل: عبدالله كرّوم، أنموذجا
Narrating the image in the Algerian story "The Cave of sabouk" by: Abdallah
Karroum, as an example

 عبدالله لا طرش

Abdallah latreche

المركز الجامعي علي كافي تندوف (الجزائر)

abdellah.latreche@cuniv-tindouf.dz

تاريخ النشر: 2025/06/04

تاريخ القبول: 2024/10/02 -

تاريخ الاستلام: 2024/05/18 -

ملخص:

حينما يكتب ابن الصحراء عن الصحراء في بعدها الزماني والمكاني وتضاريسها الجيوثقافية، ليس كما يكتب عنها من ليس منها؛ حيث أنّ ابن الصحراء منذ صرخته الأولى التي خرج بها إلى الوجود في فضاء الصحراء الواسع والمترامي الأطراف الذي تداخلت فيه الجغرافيا والتاريخ مع الأساطير والخوارق ومع العمران وأشكال البناء خاصة القصور العتيقة ذات الحلة الطينية، وتميزت حركة الإنسان فيه بملامح وممارسات أكسبته صورة خاصّة ومتفردة، هذه الصرخة التي تنفّس معها الهواء الصحراوي المميز واستنشق حبات الرمل الذهبي فراح يكتب عن هذه التجربة الفريدة، ويؤسّس لها لونا سرديا يختلف عمّا ألفه المولعون بالرواية والقصة وفنونها في قضايا المدينة والعواصم والمجتمعات المكتظة المزدهمة وشؤونها. من هنا جاءت قصص مغارة الصابوق لتقدّم لنا سردية جميلة بلغة بديعة تناسب الفضاء والحيز اختارها القاص فكان الإمتاع وكانت المؤانسة في إبحار فني ممتع.

كلمات مفتاحية: صحراء، قصر، واحة، مغارة، سرد، صورة.

Abstract

When the son of the desert writes about the desert in its temporal and spatial dimension and its geocultural topography, not as those who are not from it write about it, as the son of the desert since his first cry, which came out into existence in the vast and sprawling desert space, in which geography and history overlapped with myths and the supernatural, with urbanism and forms of construction, especially ancient palaces with mud suits, and the movement of man in it was characterized by features and practices that gave him a special and unique image, this cry with which he breathed the distinctive desert air and inhaled beads Golden Sand So he writes about this unique experience, and establishes a narrative color that differs from what those who are fond of the novel and the story and its arts are familiar with the issues of the city, capitals, crowded communities and their affairs.

From here came the stories of the cave of the Sabouk to provide us with a beautiful narrative in a wonderful language suitable for space and space chosen by the storyteller, so it was enjoyable and sociability was in artistic sailing..

Keywords: Desert, palace, oasis, cave, narrative, image.

المؤلف المرسل: عبدالله لا طرش، abdellah.latreche@cuniv-tindouf.dz

This is an open access Langues & Cultures / © 2025 The Authors. Published by the University of Adrar, Algeria.
article under the CC BY license (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>)

مقدمة:

تشير أغلب الدراسات التي اهتمت بجغرافيا الجزائر إلى أنّ مساحة الصحراء الجزائرية تشكّل في حدود 85 إلى 90 بالمائة من إجمالي المساحة الكلية للجزائر، هذا الفضاء الواسع الجامع للآثار المتعددة والحضارات المختلفة المتعاقبة التي عاشت مناخها وتمرّست على تضاريسها وتعمق الانسان عبر حقب التاريخ المختلفة في فهم كنهها وكيونتها؛ فالصحراء ملكت القدرة على منح الإنسان قيم التأمل ورؤية نهاية العالم، وهذا ما جعلها في أزمان مهمة وحساسة مهدا للنبوات ودعوة الأنبياء الذين اختارهم الله وكلفهم برسالاته للبشرية. لقد اتسمت العلاقة بين الإنسان والصحراء بالتوجس من المجهول إلى استئناس المعلوم، وكثيرا ما ترتبط الصحراء في مخيلة الإنسان برسم صورة نمطية مؤداها الانقطاع والعزلة والظروف المعيشية الصعبة، فالرّمال وما يصحبها من زوايع في أحيان كثيرة، والجو الحار والقحط؛ هي ملامح تلك الصورة، غير أن ذلك ليس صحيحا البتة ويخفي حقيقة الإبداع والجمالية والمخزون الثقافي والفلسفي والسلوك الاجتماعي الذي يميّز البيئة الصحراوية فيجعلها مصدرا للإلهام وبناء تجارب إنسانية مختلفة ورائدة.

يبدو أنّ رواية الفضاء الصحراوي تمكّنت فعلا من تثبيت مسار يخصّها هيأتها تلك الحوارات الكثيرة والمختلفة حول مسلك التوجه بثقة ووعي إلى ما سمي بأدب الصحراء، كما أنّها أنتجت متنا من الأسئلة والاستفهامات ذات العلاقة محمّلة بدلالات ورموز تغوص في عمق المعطى التاريخي من خلال الحفريات والأساطير التي تم تناقلها عبر الأجيال كإشارة واضحة على أصالة البيئة وثرائها التراثي والثقافي.

ككيف تناول السارد عبدالله كروم صحراء توات في مجموعته القصصية؟ وماهي الصورة التي ركّز على تسويقها؟ ولماذا؟ وكيف؟ أهمية الدراسة:

-اكتشاف لمسة ابن البيئة الصحراوية في تجسيد السرد الصوري للفضاء الصحراوي

-التنويه بالقصة الجزائرية في الفضاء الصحراوي وتذوق اللغة السردية خاصتها.

الدراسات السابقة:

-الدراسة الأولى لصاحبها: سمية قندوزي، نشرت عام 2023، بمجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، حملت عنوان: فلسفة العجائبي وفنون الخرق في سرديات الصحراء -قصص "مغارة الصابوق" لعبد الله كروم"، عالجت فيه الباحثة علاقة العجائبي بالسرد الصحراوي في مجال القصة حيث تتبعت الباحثة القاص عبدالله كروم في توظيفه للعجائبي والخرافة ضمن نصه القصصي هذا، من خلال اعتماده على اللغة التخيلية التي تتنوع وتتعدّد من نص إلى آخر وأيضا بخلق شخصيات تتلاءم وهذا السياق الفلسفي الفني العجيب.

-الدراسة الثانية للباحث: عبد الله العياشي، من جامعة أدرار، حمل عنوان: جمالية لغة العتبات في القصة القصيرة مغارة الصابوق لعبد الله كروم أنموذجا، تمّ نشره في مركز جيل البحث العلمي بالجزائر / فرع لبنان

في هذه الدراسة يجتهد الباحث في إبراز أهمية العتبات النصية في القصة التي اهتم بها القاص عبدالله كروم وهي: العنوان والاهداء والعتبات الداخلية والخارجية وكيف جعلها تتلاءم مع الرؤية العامة والسياق السردي ونهاياته.

1- فرش صحراوي :

الصحراء ليست فضاء جغرافياً، فحسب، إنها فكرة. فكرة عن الوجود أولاً، وعن الذات ثانياً، وتخيل الصحراء كتابياً، ليس هو الصحراء نفسها، حتى عندما يحاول الكاتب أن يُبدع نفس بنيتها الذاتية. لأن الصحراء، في النهاية، مكان يبدو شبه ثابت آنياً، مع أنه متحرك باستمرار، ولا يكف عن تغيير ماهيته، يقول إبراهيم الكوني في ردّه على سؤال طرحه أحد الإعلاميين عليه: أنت تتناول بالكتابة كثيراً تيمة العدم مقرونة بالفضاء الصحراوي، فما العلاقة؟ وما هو الرابطة بينهما؟ فأجاب: "لست أنا من يقرن الصحراء بالعدم لكنها نزعة عامة عند كلّ الناس يقولون صحراء، جحيم، خلاء، يعني النظر إليها بروح سلبية، يلعبون الصحراء في كلّ عبارة وهذا إثم كبير، لأنّ الصحراء قرين الحرية، قرين لأنبل ما في الوجود، لذا وجب أن نكبر الصحراء، أن نركع لها، أن نصلي لها لأنّ كلّ علامة فيها هي صلاة للأبدية، الصحراء قاسية بطبيعة الحال لأنّ الحرية قاسية، هي عدم لأنّ الموت عدم" (ميشال فوكو، 2006، ص 72) إنّ الفضاء الصحراوي يمتلك مميزاتاً ويتفرد بخصوصياته، لا يحظى بفهم كنهه، وامتلاك دلالاته وإشاراته إلا أولئك الأدباء والكتاب الذين هم من صلب ورحم تلك الأراضي من العالم العربي الفسيح، الذي نحتت فيه الصحراء جزءاً واسعاً ومهماً من الجغرافيا العامة، إضافة إلى ما تملكه من كنوز وثورات شكّلت تراثاً ثقافياً مميزاً ومبهراً.

لقد أضحت الصحراء مكاناً جغرافياً تزيّن بملامح مغرية وجداة فتحوّل إلى موضوع ذا بال وأهمية أسست للكتابة الروائية، ومن خلال مجالها الواسع والمتراخي وأيضاً تيمات المتعدّدة والمدهشة، تنافس الكثير من الروائيين في القدح بأفكارهم وصورهم، لأنهم بهذا الإغراء الذي حدث والعشق الذي ترسّخ والغواية بهذا الفضاء الملهم بخيالاته وتمثلاته؛ أرادوا التعبير عن مقدار النستالجيا والحنين الدافئ إلى وطن تمّ تهميشه والإمعان في إقصائه بقصد وغير قصد، ولكن بإرادة هؤلاء صار المهمش مركزاً؛ فكانت مركزية الفضاء الصحراوي، رمز الأصل والنشأة ورمز الانتماء، فالصحراء هي التراث المتدفّق الذي لا ينضب يحمل الآلام والآمال، ويحكي البطولات والانتصارات مع الانكسارات، فالصحراء عنوان الصمود والوجود، كما هي عنوان معارك البقاء ومجابهة الفناء.

وعند هذا المنعرج سأقف مع ثلاثة كتّاب جزائريين اشتغلوا على النصّ السردي الصحراوي، متجاوزاً التأصيل التاريخي للكتابة عن الصحراء وفضائها في الرواية الجزائرية سواء المكتوبة بالفرنسية أو المكتوبة بالعربية، فالغرض عندي هو الإجابة على سؤال: لماذا الصحراء في السرد الجزائري؟ وكيف صوّرها المبدع الجزائري؟

وأبدأ بالروائي المخضرم لحبيب سايج ابن مدينة سعيدة التي جاءت عند نقطة التقاء بين الشمال والجنوب حيث أنّ سعيدة تعد ضمن سلسلة الهضاب فجاءت قريبة من وهران الساحلية وأيضاً قريبة من بشار بوابة الجنوب الغربي وعاصمته، سكن أدرار مضطراً هارباً إليها خائفاً يترقب أيام الفتنة الأمنية الكبرى التي عصفت بالبلاد فاستقرّ فيها عقله وفؤاده وروحه وفتحت لها آفاق السرد الجديد في فضاء متراخي الأطراف مليء بالأسرار والرموز المكثفة والآفاق الرحبة، لقد سكنه هوس الصحراء الذي هو ليس إلا انشغالا بهذا الفضاء البديع الملعن والساحر. فقد دخل أدرار يحمل خوفه ورعبه وهواجس موته؛ فبدّلته أدرار ذلك كله أمناً وسكينة وأملاً، لذلك، وكاعتراف منه بذلك الجميل الذي أهدته إياه العناية وبالحضن الإنساني الذي قابله به أهل أدرار، منذ أن نزل بينهم، كتب لها ولهم، "تلك المحبة"، واعتبر "تلك المحبة" أول نص سردي عن أدرار بحواضرها الثلاث: توات، غورارة، وتيدكلت، وهو لا يصف صحراءها في قفرها وجدها ولكن في حياة إنسانها وفي ارتباطه بقديسية الماء وبالنبات كما في علاقته مع الله ومع الكون الذي يبدو لك متحركاً في بعد آخر، غير الذي تراه في المدن، فإن أول ما شده من ذلك، هو شعوره بأنّ الله أقرب إلى الإنسان من كل شيء تراه العين، من هنا علمته صحراء أدرار أشياء، لا تعلمها إيّاه جغرافياً أخرى، فهي الصبر والتأمل والمحبة والسياسة الفسيحة.

أمّا المبدع الثاني فهو ابن صحراء توات الروائي، الصديق حاج أحمد الملقب ثقافيا ب: الزيواني، والذي تجاوز مشروعه الكتابة عن الفضاء الصحراوي إلى الجوار الإفريقي منتها بذكاء وقاد إلى تلك العلاقة بينهما وما ينجر عنها من آثار على مستويات عدّة: السياسي بتناقضاته، والاقتصادي بفرضياته، والثقافي بتنوعاته وإبداعاته، فهو يؤكد بصراحة وصراحة أنّ الذي لا يعيش الصحراء بمكوناتها ويعجن بتلابيبها، ويكتوي بلهيب شمسها الحارقة ويقرص برياحها الهائجة؛ إحتمال كبير جدا ألاّ ينجح في الكتابة عنها بالفنية المطلوبة وبالإلهام المرغوب، لأنّ سحر الكتابة عن الصّحراء متاهة جميلة ودهشة تهزّ الرّوح والفؤاد، كما تحتاج ملكة السرد لتفاصيل وخبايا الصّحراء إلى معاشية لطيفة وذكاء وقاد من الكاتب...

وفي رأيه أنّ روايات سردية الصحراء تختلف بشكل كبير جدا عن تلك السرديات المكتوبة في المدن أو ما يعرف بالشمال، لأنّ الصفة الملازمة للصحراء أنّها ساكنة هادئة، وغامضة لدرجة الجنون وفارغة إلى حدّ الخوف أحيانا، بينما المدينة فيلازمها الصخب، ومنفلتة بالفوضى التي تسكنها، وملينة بالحركة المفرطة بإيجابيتها وسلبيتها، ولذلك فإنّ كتاب بيئة الصحراء ممن عاشوا واستقروا بالزمان والمكان هم الأولى بهتديب وتحريك أقلامهم وقرائهم للكتابة عن هذه الحياة وعن القضايا المختلفة التي تحكمها هناك، وطرق حياة مواطنيها وعاداتهم وتقاليدهم المميزة، والحال أنّ سرّ الكتابة عن الصّحراء ومفاتيحها هو حقيقة استثمار سردي مثمر للمستقبل، وتوثيق للجمال والجلال النادر المختفي خلف الطين والكثبان والنخيل الثابت والصامد.

وأما ثالث هؤلاء الكتاب، فهو المبدع الكاتب عبدالله كزوم الذي جمع بين القصّة بادئا مشواره المميز بها والرواية متوجا مسيرته في الكتابة السردية عن صاحبة الجلالة صحراء توات بتاريخها ورمليها وإنسانها الصابر المربط، وعن آلامها وآمالها، فحين التفت كتاب الشمال للصحراء لأنها فتنتهم صدفة، فعمدوا إلى إدراجها ضمن أعمالهم الروائية، جاء دور كتاب الجنوب أنفسهم خاصة الشباب لينقلوا الصورة بشكل أجمل وبروح أفضل، وقد كان ذلك فعلا.

وبخصوص هذه المسألة يرى كزوم أن القرن الحالي وفي بداياته، شهدت يقظة من أبناء الصّحراء لوعي الكتابة عن فضاء يعرفونه ويعرفهم، بل يحبونه ويحجم، أكثر من غيرهم، فكتبوا روايات وأعمال تجسّد العشق الساحر، والهيام بالمكان ومكوناته السردية المدهشة.

إن ابن الصحراء حين يكتب هويته، فهو يعرف تفاصيل التفاصيل عن الصحراء، يعلم أن للرمال عيون، تكون غاضبة وأحيانا هادئة، متأملة وأخرى متوعدة ثائرة.. كما يعرف أن للطين أذن تسمع حكايات الإنسان عن معاناته وظلم الجغرافيا.. فللصحراء حسبه عوالم ميثولوجية، مرتبطة بالأسطورة والخرافة التي تحكمها الجدات، وفي نصوصه حاول الاستثمار في هذه المصادر، ما جعله ينتج عملا إبداعيا حاملا للإضافة في اللغة والمعالم، وبإمكانه أن يزاحم السرد الذي يحوم حول المدينة.

2- من هو عبدالله كزوم:

بعيدا عن التعريف الكلاسيكي المعهود، فإنّ الكاتب عبدالله كزوم يعرّف نفسه ويقدم شخصه للقارئ والناقد والمهتم بالشأن الثقافي عموما وبالعالم السرد خصوصا حين تكلم عن تأثير البيئة في صناعة توجه الكاتب وصقل وتبيان مشروعه في معرض إجابته عن سؤال: "إلى أي مدى ساهمت البيئة المحيطة بشخصكم في تشكيل أعمالكم الإبداعية؟"

فأجاب: الكاتب إنسان جاء من بيئته التي تصبغ عليه صفاتها الوجودية، وتأثير البيئة على سلوك وخلق وشخصية الإنسان مما ناقشه علماء الجغرافيا البشرية وإخوان الصفا وخلان الوفاء وابن خلدون وغيرهم، مما يؤكد أن الإنسان يشكل خلفيته الثقافية والفكرية والاجتماعية من البيئة الحاضنة لحياته، وتكون له مادة أولية في تشكيل العوالم وتأثير المشاهد واختيار الشخصيات، ويتأثر بها لا محالة في رؤية العالم وإنتاج الخطابات المختلفة، ومع ذلك يمكنه التفاعل والتلاقح والتحيين والتحسين والتجاوز استنادا إلى التجربة والمعرفة، ومن هذا المنطلق قبل اشتغالي على فن الرواية تحديدا كنت قد أصدرت مجموعتين قصصيتين (حائط رحمونة) و(مغارة

الصابوق)، وكل من قرأهما يدرك أن فضاء الصحراء هو خيار استراتيجي، لأن الصحراء بالنسبة له هوية وانتماء وقضية، هوية مكانية يعرف في نصوصه جغرافيتها وأطلسها الثقافي وتراثها المادي واللامادي وفهرسة الحكايات وخزائن الأساطير، وانتماء لأنها موطن الصرخة والتنشئة والمصير، أما القضية فهي قضية الهامش الذي عانى من هيمنة المركز وسلطته وحضوره وقربه واستحواده على القرار والثروة، وأن لهذا الهامش أن يرفع صوته الناعم عاليا ليعرف بنفسه من بوابة الأدب والكلمة في إطار وحدة الوطن. ويقدمه الناقد الجزائري محمد تحريشي، فيقول عنه: عبد الله كروم كاتب من ولاية أدرار تعلم أبجديات الكلمة في بيئة لغوية تبدأ بالكتاب، ثم تثنيها بالمدرسة وكل المراحل التعليمية لتنضج لديه تلك الملكة اللغوية في التخاطب والكتابة وفي التواصل، فيصدر عنها وقد اكتملت لديه تلك القدرة على استنطاق المكان والسفر عبر الزمان؛ ليتحاور مع الأشخاص ويتفاعل مع الأحداث والوقائع تفاعلا يستمد وجوده من الواقع بتوظيف الخيال، وكان من ثمرات هذه الطاقة أن هذا الكاتب بدأ بكتابة القصة القصيرة حتى يتمكن من عوالم السرد والبناء الدرامي بالتركيز على حدث مركزي وبالتمكن من تكثيف اللغة.

فكتب مجموعته القصصية الأولى (حائط رحمونة) وفيها أبان عن قدرة على الكتابة والإبداع من خصوصية فنية ترتكز على ما اختبر في الذهن من ذكريات ووقائع، وعلى ما ترسب لديه من تجارب في الكتابة من خلال المسار الدراسي ومن خلال مواكبته للكتابة الأدبية العربية والعالمية، وبمدى تأثيرها بتلك الفعالية السردية التي بدأت تستقر وتنضج في مدينة أدرار وما جاورها بما كان يعقد في قطاع الثقافة بالولاية من ملتقيات وندوات حول السرد، والذي لا شك أنه حرك في هذا الكاتب ذكريات الحكى في العائلة". (عبدالله كروم، 2016، ص2)

ويبدو أنه لخص التعريف به في استلهم مقولة محمود درويش حين رددها في معرض إجابته عن تقديم كلمة للشباب المحب للإبداع والأدباء، فقال: أقول لهم ما قال محمود درويش: اقرأ تجد واكتب تكن...وانطلقوا في رحاب الإبداع، ولا تلتفتوا فإنّ الملتفت لا يصل أبدا. 3. مغارة الصابوق :

زار الكاتب مدينة تندوف في إطار فعالية مزار الثقافي والتقينا في ندوة ثقافية بالمكتبة الرئيسية للمطالعة يوم 11 فيفري 2019 حول السرد ومشروع أدب الصحراء وحصل نقاش هادئ وعميق مفيد وفي ختام اللقاء أهداني العمل ممهورا بتوقيعه وإهدائه الجميل مع تثبيت التاريخ، فقرأت المجموعة في يومها فاكشفت رجلا وأسلوبا ومضمونا مختلفا عما عهدته في قراءاتي الأخرى، وما اعتقدت أن يتيسر لي أن أكتب حولها حتى جاء هذا الملتقى المميز الذي من ضمن محاوره (الصحراء في القصة الجزائرية).

(مغارة الصابوق) مجموعة فضاءها صحراء توات، و هي ثاني عمل للكاتب بعد مجموعته الأولى (حائط رحمونة)؛ صدرت عن "دار الكلمة" بالجزائر في 134 صفحة، من القطع المتوسط، وتضم 15 قصة قصيرة، ضمت القصص الآتية: (زينة المدائن، عاصفة الرمل المنسي، رحمونة الحائط الذي لن يسقط، هبة بئر، واللحن الذي اختنق، مغارة الصابوق، أشواق تيلمسو، المعدبة، سعاد وآية الكرسي، تواتي في مادور، المعلم بوبريطه، دماء ليست للبيع، الوصيّة، دوما أحبك، لها نقش الصخرة).

ضمّ غلافها الخارجي صورة صغيرة لقصر قديم عريق ومن خلفها صورة كبيرة تملأ غلاف الكتاب لقصر طيني عتيق وسط واحة جميلة تبدو كبيرة شاسعة، وعلى غلافها الخلفي صورة للكاتب بلباسه تواتي محلي بابتسامة عريضة عنوانها التفاؤل والأمل والتطلع للمستقبل، وتعريف بالمؤلف من الناشر وكلمة قصيرة للناقد الكبير السعيد بوطاجين عن الكاتب والعمل.

4- عتبة العنوان: مغارة الصابوق، قصص من الصحراء.

يؤمن عبدالله كزوم بالمرحلية والحوارية بين الأجناس الأدبية والتطور بمرور الوقت، لذلك بدأ بالقصة القصيرة لسهولة وصولها ومنحها للكاتب فرصة التطوير والتجريب، لينتقل بعدها إلى عالم الرواية ديوان العرب المعاصر قائماً على قاعدة صلبة ومتكناً على تجربة صلبة، وهذا ما حصل مع روايته الأولى "الطرحان" 2022 والثانية "غرنة-متاهة زقاق الظلمة" 2023.

العنوان مفتاح رئيسي للولوج إلى الفضاء العام وتقسيماته وتفرعاته، وهو "المنفذ الأول للقارئ من خلاله يمكنه اقتحام البنى الدلالية للنص ويمكنه هذا الباب الرمزي.. من اقتراح برامج تأويلية يستطيع عبرها قراءة العمق؛ ويقدم تفسيرات لبنية العنوان اللغوية والرمزية والتأويلية". (عبدالمطلب براهي، 2023، ص120)

إنّ للعنوان أربعة وظائف كما ذكرها وحددها جيران جنيت وندرسها لطلابنا وهي: الإغراء، الإيحاء، الوصف، والتعيين، ويكون دور العنوان في النص والتمن الروائي من خلال تشكيله للعلامة السيميائية التي بدورها توحى وتنبي بمضمون هذا النص، وبذلك "يلعب العنوان دور الوشاية بأسرار البنية التأويلية للنص، وهو جزء من المشهد الثقافي الذي يطرح إشكالات تتصل بالإنسان وهمومه، إنّه يشكل نقطة مركزية أو لحظة تأسيس بكر يتم منها العبور إلى النص". (سامي شهاب أحمد، 2016، ص22).

يتبع العنوان عتبة الإهداء الذي خصّصه الكاتب حصراً لوالده الإنسان التواتي حيث نلمس ذلك من خلال مفردات شائعة ومعروفة ذات حمولة اجتماعية وثقافية بارزة، يقول "إلى والدي الذي خضّر الواحة، وأحيا الفقارات، وسكن مغارات الاختباء من اللفحات.. ومعه عشنا النعم السابغات.. رحمه الله رحمة واسعة". (عبدالله كزوم، 2016، ص5)

ثلاث كلمات ذات دلالة عميقة تصرف ذهنك وخيالك إلى فضاء القصص التي عجزها الكاتب ضمن هذا العمل الفني والأدبي؛ (الواحة، والفقارات، والمغارات) وهي أماكن أساسية من ضمن المكونات التي تؤثت للفضاء الصحراوي ببعديه المادي والمعنوي.

حين يقول: (ومعه عشنا النعم السابغات)، أزعّم أنّه يشير من خلاله إلى الرجل التواتي الذي يكّد ويشقى لأجل الرزق الحلال وضمان لقمة العيش الكريمة من خلال عمله اليومي في الواحات والحقول المنتشرة في هذه الأرض الطيبة، أو من خلال استصلاح الفقارات المنتشرة هنا وهناك تمدد المكان والإنسان بأسباب الوجود والحياة.

يقول عنها الكاتب والناقد تحريشي: مغارة الصابوق مجموعة قصصية تدعوك إلى مغامرة من نوع خاص، إنّها سرد صحراوي بامتياز، يطرح سؤال النسيان والتناسي لذاكرة تأبى ذلك، وتقاوم بالحرف وبالكلمة وبالحركة وبالوثبات كل مظهر يسعى إلى محوها أو تجاوزها، تعلن من خلال علاقتها بالمكان والزمان والطبيعة؛ إنّنا هاهنا صامدون ومتحرون ومرتبطنون بالأرض، ويستدعي هذا السرد سحر الكتابة وإغواء القراءة بما يحمله من مشروع فني وجمالي عن الإنسان وعن الجماعة وعن الرجل وعن المرأة وعن العائلة وعن المجتمع، كتابة عن الهامش والمهمشين وعن الهناك وعن البعيد والأبعد، وعن المختلف والمتباين وغير المتشابه في اللون والملبس والمأكل وفي الحديث، ومع ذلك فهو منا وعلينا، كتابة أيركولوجية عن الاستمرار في الوجود والإصرار على ذلك، كتابة عن العادات والتقاليد وعن الطقوس الاحتفالية، وفي الوقت ذاته تقدّم تصوراً جمالياً للثورة على بعض التقاليد البالية التي تركز الخرافة في المجتمعات المتخلفة والمهمشة، فتكشف عن بعض الممارسات الاجتماعية التي تحافظ على الوضع كما هو من تغيير يضر بأصحاب المصالح والنوايا.

ويشيد بها الروائي ابن أدرار الكاتب حاج أحمد صديق (الزيواني) مبرزاً مضامينها وموضوعاتها؛ تحيل نصوص المجموعة في مجملها، على الفضاء القصوري الطيني الواحاتي بولاية أدرار، حيث يصبح القصر، كمعادل للقرية في بيئتها الاجتماعية المغلقة، وتعالقات سلطة القبيلة وسطوتها، مع تداخل المكونات البشرية لإنثيات السكان وتعدّد ثقافتهم، مما يتيح سياحة قرائية لتلك الفضاءات الطينية، المملوءة بحيوات رجال الرمل، فتدغدغ صمتهم الرامز، وتسبح معهم في متاهات الخلاء، لتستنطق وعي الإنسان بوجوده وكيونته.

بهذه الطريقة في القراءة يمكن أن نرصد أيضاً قول آخر جاء فيه: "اتخذت مغارة الصابوق من فضاء الصّحراء الكوني الذي يشعر فيه كل شيء بالتوحد والاتحاد وباستثارة الذاكرة النائمة في قاع الوعي، كرسي اعتراف ومسائلة بل كرسي اعترافات ومناصات مسائلة "الجنوب المهمش" والمنتبذ والضحية للشمال الممركز والغازي المستبد الذي لم تقتصر شهوة المستبد فيه على تجريب أحدث وأبشع

مبتكرات مصانع الإبادة المادية، بل تجاوزت إلى إحراق وتسميم ومسح الحياة الطبيعية الكونية، وكان أن استبصر له الكاتب الحل في تنظيم قصص سرديّة بفلسفة صحراوية، لذاكرة المكاشفة والمساءلة في فضاء صحراوي". (سمية قندوزي، 2023، ص 361-362) ونجمل القول عن هذا العمل القصصي الجميل بما قاله الناقد والمترجم السعيد بوطاجين، حيث كتب: "ليست (مغارة الصّابوق) سوى حفريات في المكان، وجزئياته، وذاكرته، وهي إضافة إلى ذلك، اشتغال مهم على المعجم اللغوي، وقدراته التعبيرية، مما يجعل التجربة توصيفا للحيز ومنجزه وماهيته وإرثه، أو منظومة من العلامات المرتبطة ارتباطا وثيق الصلة بالمكان الذي سيغدو شخصية حاملة لبطاقات دلالية، حاضرة ومؤثرة في المعنى العام، أو مكونة له وموجهة لمسار الخطاب وتشكلاته... كما تتسم القصص في أغلبها بالاستثمار في النّاموس والواقع والخرافة والأسطورة ليمتزج هذا بذاك وتصبح الحكايات عالما مركبا من السحر والخيال المتقدّم.. وكثير من الجمل الواخزة التي تحمل موقفا اجتماعيا أو سياسيا من أمر ما، من واقعة أو حدث؟ أو سلوك أو ظاهرة.. مغارة الصّابوق، تجربة قادمة من عمق الصحراء وطقوسها وحزنها وبهجتها وعفويتها العظيمة، من ذلك الحيز النّائي الذي له بطاقته الثبوتية المتفردة وأوجاعه، من ذاكرة البلد التي تختبئ في البعاد بانتظار قراءتها وفهمها". (عبدالله كروم، 2016، ص 8-9)

5- ماهية الصّحراء في لوحات "مغارة الصّابوق":

يقول الكاتب عن تجربته القصصية عموما، في مجموعتي القصصية الأولى والثانية "حائط رحمونة" و"مغارة الصّابوق" أوظف المكان وعلاماته وصوره وبعض تاريخه لإبراز التحولات القيمية والإنسانية، وأقوم بنقد المجتمع الذي أعرف تفاصيله وحاجياته ومجالات قصوره، كما أحاول عبر اللغة كشف فضاء هويتي للعالم بما فيها من زخم يتقاطع فيه ما هو ثقافة، بما هو خرافة، بما هو أسطورة، إلى ما هو قيمة إنسانية. بدأت هذه المؤثرات والعلامات بالنظر لمؤثرات خارجية تضحّل وتندثر، فأنا أستحضرها حماية لبعض الذاكرة الجمعية من النسيان والتناسي، وأسهم بذلك في حماية هويتي في ظل عولمة تلتهم الخصوصية بقدر ما توفر لها فرص حمايتها. أ- اللوحة الأولى: زينة المدائن.

هي صورة يتداخل فيها المبنى مع المعنى، وتتراقص فيها الفكرة مع اللغة، يطلق القاصّ فيها العنان لريشته كي يقدم زينة المدائن وحلوة البلدان وجوهرة الأماكن للقاصي والدّاني، وهو إذ يبدأ الرّسمة فإنّه هَيّاب من جلالها وهيبها، لكنّه تشجّع وبدأ: "عن أيّ شيء سأكتب عنك؟

عن جلاله الرّمّل وقد انتظم في كتيب أصفر، وهو الضارب بوقاره في أعماق التّاريخ.. الصامت بحكمة.. والتّائر لتحقيق عدالة في الأرض... تحت رملك المنسي ذاكرة متوثبة للبحر، أبحث عنها في عوالم الحكى لأفرغ منها مكنون الصّمت الأزلي، إلا أنّني بحاجة إلى قوّة الهواء الذي حرّض جيوش الرّمّل لتغزو القرى والبيوت وحتى القدور على موائدها والأمعاء في بطونها، قبل أن يستقرّ كتيباً راعياً لأسرارك بصمت نادر". (عبدالله كروم، 2016، ص 14)

هذا الرّمّل الذي يحيط بالمكان من كلّ زاوية ومكان في ثناياه الأسرار والحكايا والعجائب: "ألم تسمعي لرؤوس الحكمة المدفونة تحت رملك والمحذرة من الصموت الذي يصوم عن الكلام دهرا، ولكنه يخبئ في صمته العجائب..". (عبدالله كروم، 2016، ص 13) تجذبه ريشته إلى أن يوقع في لوحته هذه عن الينابيع المدهشة والمذهلة التي خلّدت جمال المدينة العروس: "وحدها (الفقارة) تاريخ لم يكتب.. وأثار شاهدة على عظمة جغرافيتك، وعطاء إنسانك من روحه ودمه وعرقه لجلب قطرة الماء الغائرة... معجمها الفريد بمفرداته المتميزة التي صالحت بين لغتين متجاورتين، يتقاسمان وطناً يئنّ بأوجاع الهوية الساقطة في بئر التيه..". (عبدالله كروم، 2016، ص 15) الرّمّل والفقارة العجيبة عنوانان أصيلان يبوحا عن كنه هذه الفاتنة ذات الجمال الخلّاب الذي يطير بالألباب، لذلك فإنّ القاص المفتون بها يتساءل عمّا يمكن أن يضيفه لرسمتها: "ماذا سأضيف بريشتي لتلك اللوحة الفاتنة بمنظر تخلص الأنظار، وكيف أستجمع عناوين الجمال المنتشر على عناصر تربتك؟ وكيف أعدّد إيقاعاتك وفنونك وتمورك؟". (عبدالله كروم، 2016، ص 15)

ثمّ تزين اللوحة برسم فضاء نوستالجي يفصح عن تلك الرّوح الجميلة الأخاذة: "تلك القصبّة المغلوقة بباب خشبي كبير.. مشرفة الأسوار، متعالية الأبراج، محمّرة الألوان.. مربّعة الحيطان..

وهذا البيت الطيني الهش، المسقف بجذوع النّخل المنخور، المرعوب من خطوة الغيوم في السماء، والمرجوف من أغنية الرّيح في الهواء... مغلوب على أمري أن أجاري الدّنيا كلّها لأتفرّد بك خاصّة لي من دون النّاس، وقد تنادى العالم كلّهُ للغواية بجمالك، والتهافت على أرضك، وقد فتنوا بكل شيء فيك... هنيئاً للبشرية بك..". (عبدالله كروم، 2016، ص 16)

صورة تحلّق بك في عالم العراقة والعنقاة المهر تفرض عليك أن تقول الشعر أو تتغنى بهذه المشاهد السّاحرة إلى حدّ الصّمت ربما. في تفاصيل اللوحة المبهرة، يأخذنا القاص إلى وقفة مع إنسان توات المحب لموطنه المتفاني في خدمة أرضه ممّتنا لانتمائته إلى هذا الفضاء العجيب الحبيب: "دعاني إلى جلسة شاي، أظهر فيها التواتي عناية فائقة بأرضه ونخله وتراث أجداده، وظهر شديد التمسك بالفلاحة والنّخل والتمر والزيتون والقلوان والكرناف والقصيان وحب ليلو..". (عبدالله كروم، 2016، ص 19)

ب- اللّوحة الثّانية: بوح رملي صريح (صمتي عاطفة، وكلامي عاصفة)

يرسم القاص في هذه اللوحة بتأني شديد وصبر مديد لعبة رمل توات الهادئة الوادعة وكيف أنّه يعرف كل صغيرة وكبيرة عن هذه المدينة عارف بسلوك النّاس وطبائعهم يدرك الصالح من المفسد، ملّم بالحال والأوضاع.

إنّهُ رمل مؤنس صاحب مودّة مشفق على حال البلدة وأهلها الطيبين وصادح بالحق لا ينافق ولا يداهن: "أنا هنا منذ الأزل، تارة أميل للسكون، وتارة أخرى أهوى الثوران فأسند نفسي للرّيح، فتحملني معها حيث تريد... أنتم تتكلمون كثيراً وتفعلون قليلاً، أما أنا (صمتي عاطفة، وكلامي عاصفة).. أنا هنا حامي محمية التمر، والبطل الملحي لهذه الواحة، من حيّاني ورفع لي القبّة، أحرسه وأضمن له الأمان، ومن ترعّع أبتلعه على ظمأ لا يعرف الارتواء..". (عبدالله كروم، 2016، ص 23-24)

مشاهد اللوحة الرملية تجعلك في توليفة بين مدّ وجزر وتصعد بك أحياناً ثم تنزل أخرى، تهزّك وتؤزك، تؤلّمك وتحنّ عليك: "أنا القضاء المبرم.. الصاعقة النازلة.. أحاصرك أيها الإنسان! نعم أحاصرك، أغيّر مواعيدك الزائفة منها والجادة.. أقضي عليك بالركون ما دمت ثائراً، أحكم عليك بالحبس حكماً لا يقبل باطل النقض الذي تسير به الأغوال غابة الظلم.. كلما وجدت فجوة رشحت إلى دواخل بيتك، أسطو على آيتك، وأثائك ومتاعك، وكل أغراضك.. أحمل معي المرض، والألم، والقلق، ولا تزال تطاردني حتى أدخلك المشفى.. أنا من ينتقم لعذاباتك وأحزانك ومظلوميّاتك التي تبيّض لها الغريان.. ألم اقل لك أنني سأنتقم، نعم سأنتقم للطيبين والمسحوقين والمهمشين والمنسيين في أقصى الأرض". (عبدالله كروم، 2016، ص 25-26)

وبلمحة ساخرة يرسمها القاص لتلك اللحظة التي تتحرك الرمال في عاصفة يتوقف معها كل شيء ومنها الطائرة القادمة من المركز تحمل المسؤولين في زيارات عافها النّاس ولم يلمسوا منها سوى التّعب وضياح المال: "قلت للمطار: لا تستقبل هذه الطائرة، وردّها على أعقابها مطرودة وألغيت الزّيارة.. ولم تخلف وراءها سواء روائح الشواء وفواتير مكلفة تقطع من حاجات البسطاء". (عبدالله كروم، 2016، ص 28).

ج- اللّوحة الثّالثة: زواج على وقع الخرافة

يختار القاص لوحته هذه المرّة من زحام الرّغبة والحب والحلم بالزواج وبناء البيت، ويتكى في رسمته هذه المرّة على أسطورة عريقة وجميلة يخضعن لسحرها وسلطانها بنات القرية التواتية حتى تلك اللواتي يتسلّل إليهن الغرور بجمالهنّ وصغر سنّهن كما هو الحال مع (عيشة) التي استقرّ عندها أنّ: "الجمال الجاذب وقر لها الأمل في تأجيل زواجها، وأعطاهها سلطة الرّفص لكلّ خاطب جاءها يخطب عينها الخاطفتين، لكنّها تتمنّع بأعذار هلامية...". (عبدالله كروم، 2016، ص 37)

يطلق القاص العنان لريشته الخفيفة بين يديه، فيرسم على اللّوحة ملامح طقوس الخرافة ويختار لها الألوان اللانثقة بها محدّداً لها إطارها الزمكاني والأجواء المحيطة بها: "يزداد قلق والدتها مع تقدّمها في السنّ، ويزداد أكثر يوم عاشوراء عندما ترى فتيات الحي يسعين

لجلب حظهنّ في الزواج ويتوسلن بعطرية (سيدي مولاي الشريف) وكسرة (دادة قاسم)، وعتبات الأولياء وكل شيء جاذب للحظّ دافع للعنس، ولاسيما الصعود لقمة جبل (دادة قاسم المولودي) ببطحاء سطح عزّي، والوقوف به زوالا، وكل فتاة قد أعدت كسرة متوتلة مقلبة فيّاحة، وكلها أمل في أنّ دادة قاسم سوف يعمل سحره في الشباب ويسقطهم صرعى للإعجاب به..". (عبدالله كروم، 2016، ص 37-38)

القاص لا يترك في لوحته الخرافة ملمحا عاما دون أن يثبّت تفاصيلها فهذا مهمّ جدا كي يفهم (القارئ/ الزائر) كنهها وأسبابها ومراسيمها وآثارها: "عيشة الفاتنة تسخر من البنات اللاتي يعمدن إلى خرافة دادة قاسم كل عاشوراء، ويتعين أنفسهن في إعداد الهدية الغالية المتمثلة في كسرة بلدية من دقيق القمح التواتي الخالص الذي تعب الفلاح في إنضاجه، ثمّ يضعن بعمق البئر كسرة مدهونة بدهن مؤصل أو جزء منها، ويقلن بتودد (صدقة عليك يا دادة قاسم إذا جاني سعدي أن ندير ليك كسرة كبيرة ولي زوار انتاعك)، ويقول صوت من البئر (الله مي) بمعنى (آمين)، ثم يأتي زمار بوعلي بأنغامه وإيقاعاته الآسرة قبيل مغرب يوم عاشوراء ويصدق في أجواء ذلك المكان بأصواته المرقصة وهو يردّد (يا ودي يا الله يا دادة قاسم يا مولود)... ويرقص الجميع وتزغرد النسوة، وربما يبدأ مفعول البئر يعمل من تلك الحلقة، فتعجب فتاة فتى، ويقول قلبه لها: (نعم)". (عبدالله كروم، 2016، ص 38)

في اللوحة تلميح واضح وبارز من القاص لإيمان أهل البلدة بالخرافة والتزامهم بها لأنهم يلمسون نتائجها وتتحقق آمالهم ومرادهم: تزوجت كل قرينات عيشة اللاتي كنّ يصعدن لجبل دادة قاسم وصرن أمهات يجرين وراء أطفالهن في لعواشير، وذهبت أيام وشهور وعاشورات كثيرات ولم تتزوج عيشة التي بدأ بريقها يؤول شيئا فشيئا... طلبا للشفاء أقسمت عيشة قسما مغلظا أن تدفن كسرة قمحية خالصة لم تدفن مثلها في توات، تدخل بها سجل جينيس التواتي للأرقام القياسية وتمنحها لدادة قاسم بمفرده.. طمعا في البرء ودفع العنس في أن". (عبدالله كروم، 2016، ص 39-40)

لوحة فاتنة مهيبة من بيئة تواتية تعلن ارتباط أهلها بالخرافة والأسطورة والإيمان بها كحل لمشاكل اجتماعية ذات أهمية وحساسية على رأسها مسألة (العنوسة وتدايعاتها).

د-اللوحة الرابعة: مغارة الصابوق

في لحظة مخطوفة من الزمن الجميل، يطلق القاص لريشته العنان حتى يرسم لنا لوحة مذهلة كانت هي أم اللوحات حيث كان العنوان الجامع لكل اللوحات التي ضمّتها الكتاب بهذا الاسم (مغارة الصابوق)، وتحكي هذه اللوحة قصّة شاب اسمه الصابوق (لا ندري أهو اسم حقيقي أم متخيل فقط) ينحدر من قصر طيني بواد ذي نخل وهذا تصوير بديع لفضاء صحراوي يتكرّر في مدن عدّة من أرض توات الواسعة، فهو هنا يلمح إليه لا على سبيل التعيين، وإنّما على سبيل صفة المكان العامّة: "بالجهة الشرقية من القصر الطيني بواد ذي نخل، وعلى ربوة صلدة، حفر الصابوق في وقت خرافي مغارة والشمس توزع لهيئها على حاضنة الرّمّل..." (عبدالله كروم، 2016، ص 55) الشمس الحارقة التي تعرّض لضربتها كانت سببا أساسيا في إقدامه على حفر المغارة انتقاما منها لأنّه طلب منها عدم تتبعه، لكنّها أصرت- في رأيه- فواجهها وحصل له ما حصل "لكن الصابوق قرّر أن ينتقم من الشمس ببناء مغارة عجيبة، يحتجب فيها عنها، فانقطع يحفر المغارة بمفرده، وطفق يغالب المتاعب، ويصل الليل بالنهار حتى نحت كهوبا ذاهبة الحسن والاتقان وأول ما يري انتباه داخلها أنّها متكيفة عكس الجو الخارجي، فهي في الصيف الحار باردة، وفي فصل الشتاء البارد تسودها السخونة". (عبدالله كروم، 2016، ص 57) طبعاً القاص هنا يرسم شخصية تركت بصمة في المجتمع رغم أنّها تعيش على الهامش من المنسيين البسطاء الكادحين: "وهو الرجل الهامشي الذي بصم على أعمال كثيرة فاقت أناسا ممن ترأسوا وسادوا في القرى، وربّما كانوا أداة لضياح قطرة الماء، وسببا لهلاك حرث الواحة وإرثها، فذهبت سعفتها الخضراء، وانحنت أعجاز النخل شاكية من النسيان، وتسبّخت أرضها ذات العطاء..." (عبدالله كروم، 2016، ص 55)

ولتأكيد ارتباط الشخصية الرئيسية في القصة بالمكان فإنه أورد له صفاته من وحي البيئة" وقد كان الصابوق مربوع القامة، أسمر اللون مشرباً بسواد، إحدى عينيه مقروصة لدرجة الإطباق، غير أنه نشيط الزَّوَج، وفي صوته نبرة عالية، لا يكاد يتخلّى عن عباءة زرقاء.." (عبدالله كروم، 2016، ص55)

المغارة التي حفرها الصابوق وتركها أثراً مغلداً في المجتمع الطيني، ألهمت القاص ليمرّر رسالة سياسية أصيلة تتعاقب عبر الأجيال قائمة على الصراع مع الاستبداد والظلم والقهر السياسي والاجتماعي للصادقين والطامحين لخدمة المجتمعات والأوطان فحال المغارة كحال الكهف والفتية الذي لجأوا إليه هرباً من جور السلطان و سطوة السلطة السياسية" ترك المغارة أثراً... لتكون ملاذاً من لفحات الزمهرير.. وكهفاً لأصحابه عبر أزمّة التاريخ المتعاقبة، فأهل الكهف يتجدّد دورهم في كلّ جيل يصارع الاستبداد والكبت السياسي أو الاجتماعي.." (عبدالله كروم، 2016، ص55-56)

حفرت المغارة وشيّدت ولم تكن حدثاً عادياً، فلم يستفرد بها الصابوق لوحده لأنها أضحت ملجأ الضعفاء والمقهورين " ملجأ مجاني حفر انتقاماً من اللهب، من الشمس التي أذته، وفطر بها بئراً عميقة يتزود منها الصابوق بالماء وملأ منها جرّته الطينية، التي بلّطها بالتراب المبلّل، وسدّها بصمام ليفي، وتركها عند مدخل العمارة، وكلّ من زار المغارة شرب من الجرّة الباردة" (عبدالله كروم، 2016، ص58) في هذه الفقرة نعيش مع صورة فضاء صحراوي خالص، المغارة على ربوة منسية تواجه الشمس لوقت طويل، ولكنّها ترأف على من يدخلها بأسباب الحياة: ظلّ وجوّ بارد معتدل، وماء طبيعي من جرّة طينية مؤمنة بصمام ليفي مما يجعله صحي عذب خالص. ثم يوقع القاص بريشته الجميلة على اللوحة مستندعياً فكرة عجابية يعمق بها عنصر التشويق والإبهار فيرسم تلك الكرامات التي عادة ما تصاحب الدراويش في حياتهم ومعيشتهم وأماكن إقامتهم" صارت المغارة له كالمعبد بالنسبة للراهب لا يفارقها البتّة، وقد رأى الزوار فيها أنواع الأطعمة والفواكه غير الموسمية، ففي فصل الصيف يأكلون فاكهة الشتاء والعكس.. والناس يتعجبون وهم يسقون فيها أشربة مختلفة يتحिرون في وصفها.." (عبدالله كروم، 2016، ص58)

هـ- اللوحة الخامسة: (المعلّم بوبريطه) أو نوستالجيا طفولة صحراوية

في هذه اللوحة المزينة بروح وبراءة الطفولة ومشاعباتها، يرسم القاص لوحته إكراماً لها خاصة الأطفال مع ذويهم الرافضين المدرسة من الأصل وما يحصل بينهم وبين معلّمهم (بوبريطه)، القادم من خارج عالمهم وتقاليدهم ليقوم بمهمة تعليمية رسالية بوادي النخل، ويبني القاص دور البطل القائد بين هؤلاء التلاميذ، فيصور بداية المشهد كالآتي: "مع الصبية الهائجين في زقاق- تهالة- تراني.. أجري وراء معلّم يعتمر قبعة مشبوهة، وهو يتقي بمحفظته تسديدات الأطفال له بحجارة منتقاة لتهدئ رأسه.. كنت أتوخي من الحجارة أمضاها وأملسها وأخفّيها، ثمّ أدهنها بلعابي، وأتراجع للخلف خطوة، ثمّ ألفّ الساق بالساق، وأجعله في دائرة الهدف بواسطة عيني الملتقطه لخياله، وأضيق عيني اليسرى قليلاً، قارصاً قبل القنص، وأصيح في زهو (ياقياس يا مياس جيها في ذاك الراس) ثمّ أستهدفه، وقلما أخطئه في تسديداتي، إلا أنني أشهد بخفته وحنكته في إبعاد الحجارة عن رأسه بمحفظته الكبيرة" (عبدالله كروم، 2016، ص93) تفصيل مهم يحرك به القاص مخيلة القارئ فيعيش لحظات نوستالجية لطفولة الفضاء الصحراوي في قصر من القصور الطينية التواتية وفي حيّ من أحيائها ترفض ثقافة وافدة عليها بسبب الانغلاق والمحافظة الشديدة التي ألّفها بيئتهم، هذه الثقافة التي جاء بها معلّم يلبس اللباس الإفرنجي، ويسمع الغناء والموسيقى الغربية الأمر الذي دفع بعض كبار القرية أن يستهجنوا هذا السلوك الغريب ويعمدون إلى الدعوة بمقاطعة التدريس النظامي الذي رأوا فيه "إفساد العرف والدين والعادة" (عبدالله كروم، 2016، ص94) طبعاً تدخل عقلاء المجتمع وأوقفوا هذه الخطوة تقديراً للمصلحة ووأداً للفتنة.

ولكن الأمر الذي لم يتم استساغاه هو إقدام المعلّم على اعمار قبعة جلدية شبيهة بقبعات رعاة البقر في لاس فيغاس أو فلوريدا بأمريكا وقد خلّدت ذلك السينما الأمريكية في أفلام كثيرة، ثم سلوكه الغريب المنافي لأخلاق البلدة إذ هو يمشي ويصفر ويغني وقبل وصوله المدرسة وقف في مكان اعتقد أنه خال من الناظرين فبال واقفاً من غير استنجااء بماء أو تراب فلمحه رغم ظلمة المكان أحدهم وهو من

بين المحرضين، فذهب مسرعا إلى كبار القرية خاصة أولئك المناهضين للمدرسة وسرد عليهم ما رأى، قائلا: "... المعلم الجديد الذي جاء ليعلم الأولاد (رومي.. يبول واقف.. ويصفر كيلقور.. ويدير البريطة) اتخذ القرار في الحين بضرورة شحن الأطفال الصغار عليه ورميه بالحجارة، وهم يقولون (ميسوم بوبريطة يا الرومي الكبير)" (عبدالله كروم، 2016، ص 95)

حصلت الفتنة، وسعى الأطفال المشحونين الهائجين وراء المعلم فأشبعوه سبًا وشتما، وكان الفتى (القاص) بينهم ينفذ الوصية ومضمون الخطة باحثا عن رأس الرومي الكافر ليدميه.

ينهي القاص هذه اللوحة برسم لقطة ذات قيمة أخلاقية واجتماعية مقدسة عند المجتمع الصحراوي وهي سعيهم الدائم لوأد أي فتنة تحصل وإحلال السلم والتصالح مع العدالة وإفشاء السلم والتسامح لأن الأمن والاستقرار مطلب اجتماعي أساسي، يقول: "اجتمع تيار الوعي في القرية، يتأسسهم خال والدتي، وقرروا معاقبة الجناة المخططين والمنفذين... ثم دعوا المعلم (ميسوم) ليركلنا أو يرمينا بالحجارة لكنه أبى، وقال لهم (لقد سامحتهم)، وكان سعيدا بعدالة القرية ورجالها العقلاء..." (عبدالله كروم، 2016، ص 95)

حقا إنها نستالجيا طفولية صحراوية معجونة بمكونات تواتية مثيرة للخيال وتشبع الإحساس.

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني ، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني ، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الثاني ، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول.

خاتمة:

نجح القاص في سرد قصصه التي جاءت لوحات فنية رائعة لامست طبيعة الصحراء التواتية بمكوناتها الطبيعية (الرمل، القصر الطيني، الواحة، الفقارة..) الإنسان في صراعه مع الطبيعة، مع الواقع الصعب، والإشادة بالعادات والتقاليد الجميلة التي تميز المجتمع التواتي ولا تنسى في ذات الوقت الثورة على بعض التقاليد التي تسببت في الجهل والانغلاق والحرمان.

لقد جمعت هذه القصص بين الواقع والخيال، وبين العجائبية والجمال، وبين الحنين إلى الماضي والتطلع إلى المستقبل، وبين الدعوة إلى القيم ونبد الظلم، وبين نبذ الجهل والتمسك بالقلم، وبين البساطة وزحف شيء من الحداثة، بين المتفق عليه والمختلف فيه.

اللغة السردية التي اختارها القاص جاءت بأسلوب السهل الممتنع، أرادها لغة تجمع بين الإمتاع والمؤانسة، لغة الحكيم ضمن الفضاء الصحراوي الجامع لتراث واسع متنوع منه اللسان المحلي المحمل بالبعد العربي والأمازيغي والإفريقي.

وفي نهاية هذا البحث، يمكن تحديد جملة من النتائج والتوصيات نذكرها كالآتي:

- 1- في ميدان القصة والصحراء يمكن أن نعلن أن مغارة الصابوق تعتبر من بواكير القصص المؤسسة لهذا التوجه.
- 2- هذه القصص ألفها قاص وكاتب من البيئة الصحراوية طامح لمشروع الكتابة عن الفضاء الصحراوي ومكوناته ومكوناته.
- 3- الفضاء الصحراوي يكتنز الكثير من العوالم التي يمكن إبرازها وإخراجها للوجود بالسرد القصصي جنبا إلى الكتابة الروائية.
- 4- قصص مغارة الصابوق ومثلها حائط رحمونة أفصحنا عن مشروع كاتب يخطط لنفسه مكانة مشروعة وملهمة في السرد الجزائري والعربي ترصدها عين الناقد والباحث والمتابع للشأن الأدبي والثقافي.

من المفيد أن تؤسس جائزة وطنية للقصة في عالم الصحراء تشجيعا للمواهب من جهة وترسيخا لهذا المشروع الجيني من جهة

أخرى بما يحقق الإبداع والابتكار الأدبي.

5. قائمة المراجع:

المصادر:

- عبدالله كزّوم، (2016) *مغارة الصّابوق - قصص*، ط1 دار الكلمة للنشر والتوزيع، الجزائر.

المراجع:

- سامي شهاب أحمد، (2016)، *سرد ما بعد الحداثة رواية "سابع أيام الخلق" مفتاحا إجرائيا*، ط1، الحامد للنشر والتوزيع، عمان.

- ميشال فوكو، (2006) *تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي*، تر: سعيد بنكراد، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب.

دورية علمية:

- سميرة قندوزي، (2023) *فلسفة العجائبي وفنون الخرق في سرديات الصحراء قصص "مغارة الصّابوق" لعبدالله كزّوم، أنموذجا*، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، مج:11، ع1، ص (357-367)
- عبدالمطلب براهمي، ورده ربعاني، (2023)، *شعرية العتبات في رواية الطرحان لعبدالله كزوم مقارنة تحليلية*، مجلة النص، مج:10، ع1، ص (116-128).

سيرة مختصرة:

الأستاذ: عبد الله لا طرش، أستاذ التعليم العالي في الدراسات الأدبية والحضارية بالمركز الجامعي تندوف، يدرس مقاييس النص الأدبي القديم، واتجاهات تحليل الخطاب وتاريخية الأدب الجزائري. نشر عدة مقالات في مجلات محكمة داخل وخارج الوطن ذات الاهتمام الأدبي بشكل عام وتلك التي لها علاقة بالتراث الثقافي الحساني، مهتم بالرواية الجزائرية المعاصرة جدا، قدم مداخلات متنوعة في ملتقيات وطنية وأخرى دولية.